الإسلام والإنسان

الدكتور علي عيسى عثمان

أولا: في منهجية هذا البحث

١ ــ سنحاول أن نبين هنا ان الاسلام كان أول نظام كليّ في الحياة اعترف بالانسان كما هو في حقيقته، وأنه أول نظام كليّ أقام نظام الدين كلّه استجابة لهذا الاعتراف وتجسيداً له.

وان نبين أن هذا الاعتراف هو في الحقيقة مصدر كل حقّ من حقوق الانسان والأصل لها كلّها.

وأن نشير الى أن التزام مجتمع معيّن بما يسمى بحقوق الانسان بدون هذا الاعتراف بالانسان التزام مشبوه وناقص، ولا يقوم على أسس متينة، وان مثل هذا المجتمع قد يكون في واقعه مجتمعا عنصريا.

والقضية في بيان ذلك قضية منهجية.

فمن اين تطلب حقوق الانسان في الاسلام؟ وكيف تطلب؟

ومن اين تطلب الانظمة الاجتماعية القادرة على استيعاب فلسفة الاسلام في الانسان، وعلى تجسيدها في واقع سياسي وتربوي وغيره؟ وكيف تطلب؟.

هذه أسئلة اساسية، وتستدعي أسئلة كثيرة أخرى هي ايضا اساسية. والاجابة على هذه الاسئلة كلها شرط ضروري للنظر في موقف الاسلام من الانسان ومن حقوق الانسان ومن الديمقراطية ومن غيرها، ومن اي امر من امور حياة الانسان العامة.

وهذه الاسئلة تطلب بدورها كما تطلب من أي نظام كليّ في الحياة، ان كان هو الاسلام أو غيره، من أصول ثلاثة ومن ترابط هذه الاصول في كل واحد ومتكامل، هي اولا، نظرة ذلك النظام الى الانسان، ونظرته الى العالم ثانيا، ونظرته الى الألوهية أو ما يقوم مقامها ثالثا. ولأن النتائج في دراسة مثل هذه الانظمة الكلية تتقرر الى حد بعيد بطبيعة المنهج الذي يستخدم في دراستها، ولأن المنهج الذي سنعتمد عليه يختلف عن المنهج التقليدي في كشف مواقف الاسلام من الامور العامة في حياة الانسان، رأينا من الضروري تقديم هذا البحث ببعض الملاحظات حول المنهج الذي سنعتمد عليه أولا، وببعض الملاحظات حول «منهج القرآن الكريم في الكشف عن حقيقة الانسان» ثانيا، تمهيداً لاستخلاص فلسفة الاسلام في الانسان ولاستخلاص ما في هذه الفلسفة من حقوق وحريات ومسؤوليات، وتمهيداً للنظر في ما هي الاصول التي ينبغي أن يقوم عليها النظام السياسي الملائم للاسلام.

وبعد استخراج نظرة الاسلام الى الانسان من داخل القرآن والسنة، ورؤية ما تحمله هذه النظرة من حقوق وحريات اساسية ومن واجبات، يتم لنا الشرط للنظر في ما يلائم هذه النظرة أو لا يلائمها من أنظمة اجتماعية، سياسية كانت أو غيرها. والبشرية تملك اليوم تراثاً طويلا وغنياً في فنون بناء وتطوير الأنظمة الاجتماعية اللازمة لاستيعاب نظرة معينة الى الانسان، ولترجمة ما تحمله تلك النظرة من مبادىء وقيم وغايات في واقع اجتماعي، سياسي وغيره. وتملك ايضا خبرة طويلة وغنية في الحكم على ملاءمة أو عدم ملاءمة نظام معين لفلسفة معينة في الانسان، وفي الحكم على كفاءة أو عدم كفاءة ذلك النظام في تحقيق ما في تلك الفلسفة من قيم وغايات ولذلك، وقبل ان ينظر المسلمون في اي

الانظمة الاجتماعية يصلح للاسلام أو لا يصلح، يجب ان تنصبّ جهودهم على توضيح نظرة الاسلام الى الانسان، وعلى بيان ما تمثّله هذه النظرة من فلسفة في الانسان، ومن داخل القرآن والسنة. ولا يكون نظامنا السياسي نظاماً اسلامياً، ولا نظامنا التربوي نظاماً اسلامياً، ولا يكون غيرها من الانظمة الاجتماعية نظاما اسلاميا الّا اذا قامت كل هذه الانظمة على أساس هذا التوضيح وهذا البيان.

هذا، واعتقادنا ان المسلمين لم ينجحوا بعد في بناء وفي تطوير الانظمة الاجتماعية الملائمة للاسلام لأنهم لم يطلبوا هذه الانظمة من حيث ينبغي ان تطلب: من نظرة الاسلام الى الانسان، ومما تمثله هذه النظرة من فلسفة خاصة في الانسان. فالانظمة الاجتماعية كلها، السياسية وغيرها، توجد وتتطور من اجل تجسيد فلسفة معينة في الانسان، ومن اجل رعايتها وحمايتها. فكيف نستخرج نظرة الاسلام وفلسفة الى الانسان؟، وكيف تجسد هذه النظرة في أنظمة اجتماعية؟ هي من اكبر التحديات التي تواجه المسلمين اليوم.

٢ ــ ثم كيف نتعامل مع مصادر الاسلام الاولية، مع القرآن والسنة، في طلب نظرة الاسلام الى الانسان؟. هل نتعامل معها بالمنهج التقليدي الذي يرى هذه المصادر وكأنها مجموعات من النصوص والاخبار تختص كل مجموعة منها بجانب من جوانب حياة الانسان وهل نتعامل مع تلك النصوص والاخبار وكأنها تتضمن موقف الاسلام النهائي من الامر الذي نريد ان نبين موقف منه؟.

فهل تتم لنا مثلا معرفة نظام الحكم الملائم لنظرة الاسلام الى الانسان من مجموعة معينة من الآيات والأحاديث التي تتعلق بالحكم اكثر من غيرها؟. فهل تتم معرفة هذا النظام مما تتضمنه آيات كآيات الشوري، وطاعة أولى الأمر، وتأدية الأمانات، والأمر بالمعروف الشوري، والنهي عن المنكر، وغيرها من النصوص والاخبار التي تتعلق بالحكم؟.

وكذلك، هل يكون نظام التربية نظاما اسلاميا اذا هو اقيم على مجموعة من النصوص التي تحضّ على طلب العلم، وتجعل طلبه فريضة على كل مسلم... الى آخر ما هنالك من نصوص وأخبار معينة تتعلق بالعلم وبالتربية اكثر من غيرها؟

هذا المنهج التقليدي، والذي هو امتداد لمنهج الفقه في استنباط الأحكام الشرعية من مسألة من المسائل، يفترض ان موقف الاسلام من أمر من أمور حياة الانسان العامة يعرف معرفة كاملة ونهائية مما تتضمنه لغة نصوص واخبار معينة تتعلق بذلك الأمر اكثر من غيرها. ويفترض هذا المنهج بالتالي ان النصوص هي ذاتها المصادر النهائية لمعرفة ذلك الموقف. والقضية هنا ليست في ضرورة العودة الى كلام الله تعالى والى ما بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله، ولكنها في منهجيه التعامل مع هذا الكلام وهذه السنة. فالنصوص مهما بلغت لغتها من الدقة والاعجاز في التعبير، فان معانيها لا تستوفي ولا تتكمل استكمالًا كاملًا بمعزل عن نظام الدين الأكبر الذي تنتمر اليه، وبمعزل عن موقعها فيه. النصوص العينية تؤكد بعض ما في أصول ذلك النظام من معان ومن غايات، ولكنها مهما كثرت لا تستوفي موقف الاسلام من أمر من أمور حياة الانسان العامة، ولا تستنفد ما يحمله نظام الاسلام الكليّ حول ذلك الامر. فالآيات التي تستخدم غالبا في النظر في طبيعة الحكم الملائم للاسلام، والتي اشرنا اليها من قبل، لا تتعلق ببناء هذا النظام لأنها لا تمثل نظرة الاسلام الى الانسان، بل تتعلق بمبادىء في الحكم بعد أن يكون بناء نظام الحكم قد أقيم. وكذلك الاصول التي ينبغي أن يقام عليها نظام التربية في الاسلام ليست في الآيات والأحاديث التي ترفع من مكانة العلم وتحصين عليه، بل هي في أهمية كشف الحقيقة في آيات الله في خلقه من أجل التوصل الى التوحيد.

وشمولية الاسلام ليست كما يفترض المنهج «النصوصي» في وجود نصوص وأخبار، وبالتالي وجود أحكام، تشمل كل جانب من جوانب حياة الانسان، ولكنها، وكما سنرى، هي في شمولية

الاصول التي يقوم عليها نظام الدين في الاسلام، وفي ارتباط هذه الاصول بالحقيقة كما توجد هذه الحقيقة في حقيقة الانسان وفي حقيقة العالم وحقيقة ما فيه من أشياء، وفي حقيقة النظام الكلي الذي يخضع له هذا العالم. وصلاحية الاسلام لكل زمان ومكان ليست في أحكام هي أصلح من غيرها في تنظيم حياة الانسان اينما كان وفي أي عصر كان، ولكنها وكما سنرى، في جعل حقيقة الانسان وحقيقة العالم وما فيه المرجع الثابت والدائم لما ينبغي ان يتوجه به الانسان في تنظيم حياته، أما النصوص العينية، وكذلك الأحكام التي استنبطت منها فتقع عندئذ في مواقعها المناسبة لها بعد التعرف على النظام الكلي الذي يمثله الاسلام.

٣ ــ والمنهج الذي يكشف عن نظرة الاسلام الى الانسان هو منهج القرآن في الكشف عن حقيقة الانسان، وفي كيفية توظيف القرآن لما في هذه الحقيقة من قدرات عقلية ومن ارادة اخلاقية في استدراج الانسان الى الحق والى التوحيد.

فالذي يستوقفنا في القرآن الكريم اكثر من أي شيء آخر فيه حرصه الشديد على تعريف «ما هو الانسان؟» للانسان اولا، وتوظيفه الكامل لما جاء في هذا التعريف من شوق فطري لمعرفة الحق، ومن قدرات عقلية وارادة اخلاقية لدعم هذا الشوق وخدمته ثانيا. فالانسان الذي يخاطبه القرآن الكريم هو هذا الانسان الذي يملك في نفسه ذلك الشوق وتلك القدرات وتلك الارادة، ويتوقع القرآن من هذا الانسان ان يستجيب الى ما يدعوه اليه لانه هو هذا الانسان.

وكذلك يستوقفنا في القرآن الكريم حرصه الشديد على جعل الحقيقة كما هي موجودة في حقيقة الانسان نفسه وفي حقيقة العالم وحقيقة كل شيء فيه مرجع هذا الانسان للنظر في صحة ما يدعوه اليه.

وهذا الحرص على تعريف «ما هو الانسان؟» للانسان وبيان ما في هذا الانسان من فطرة ومن قدرات عقلية وارادة اخلاقية اولا، وهذا الحرص على جعل الحقيقة كما هي في حقيقة الانسان وفي حقيقة العالم مرجع هذا الانسان في استكشاف الحق ثانيا، هو منهج القرآن الكريم في بناء نظام الدين كله، لهذا الانسان، والأهم من ذلك، هو منهج القرآن الكريم في استدراجه لهذا الانسان وفي اشراكه له اشراكا واعيا وكاملا في التعرف على هذا النظام وفي اختياره على غيره من الانظمة، ان كانت هذه دينية او غيرها.

وسنرى قريبا ان جواب الاسلام على «ما هو نظام الحياة، او الدين اذا شئت، الملائم للانسان والقادر على تحقيق ما فيه من طاقات واستعدادات، هو اصلا في جوابه على «ما هو الانسان؟».

فالدين أو أي نظام في الحياة لا يكون صالحا للانسان الّا اذا كان استجابة لما في الانسان من حاجات، وكان هو الاقدر من غيره على تلبية هذه الحاجات وتحقيق ما فيها من طاقات. «ما هو الانسان؟». يجب ان يسبق منطقيا «ما هو الدين، أو نظام الحياة، الصالح للانسان؟». وكانت هذه بعض الحكمة في حرص القرآن الكريم على تعريف «ما هو الانسان؟» للانسان. القرآن الكريم من وجه جواب على «ما هو الانسان؟»، وهو من وجه آخر جواب على كيفية توظيف الانسان لما في فطرته من شوق الى الحق ومن قدرات عقلية وارادة اخلاقية.

فكيف يصير الانسان نفسه هو وسيلة نفسه لتحقيق ما فيه هو من حاجات وغايات؟ هذا هو منهج القرآن الكريم في مخاطبة الانسان وفي دعوته الى التوحيد وفي استدراجه اليه.

ثم نرى ان القرآن الكريم يحتكم في دعوة هذا الانسان الى التوحيد الى مرجع جاء به من خارج كل ما توارثه الانسان من أديان وعقائد وعلم وفكر واساطير، نراه يحتكم في هذه الدعوة الى مرجع له وجود ذاتي وموضوعي، وله حقيقته الخاصة به خارج اي تصور له أو علم به. نراه يحتكم الى الحقيقة كما هي موجودة في حقيقة الانسان وفي حقيقة العالم وفي حقيقة كل شيء وكل ظاهرة وكل حدث يحدث فيه. جعل القرآن ما تحمله هذه الحقيقة من ادلة وليس ما يتوارثه الانسان في مجتمعه

من دين وعقائد وغيرها مرجع هذا الانسان للفصل بين الباطل والحق، وبين الشرك والتوحيد. ومرجعه لما ينبغي ان يتوجه به.

هذا، ومع أن نظام الدين في الاسلام ينتهي في النهاية الى التوحيد الذي يشمل أصول هذا النظام ويحيط بها كلها ويفسرها، الّا أن المنطلق في هذا النظام التوحيدي يبدأ بالاعتراف بقدرة الانسان على استكشاف هذا التوحيد. ولولا هذا الاعتراف، والاعتراف بكفاءة هذه القدرات في عمليات هذا الاستكشاف، لما كان هذا النظام. ولـذلك كان الانسان وكما رآه الاسلام هو الأساس الذي يقوم عليه هذا النظام كله وينطلق منه. ولقد جعل القرآن الكريم معرفة الانسان للحقيقة كما هي في حقيقة الانسان وفي حقيقة العالم مرجع الانسان للفصل بين الحق والباطل، ولاستكشاف ما ينبغي له أن يتوجه به، وجعل بالتالي هذه الحقيقة الاساس الثاني الذي اقام نظام الدين عليه. فما هي نظرة الاسلام الى الانسان؟ وما الذي تنطوي عليه هذه النظرة من فلسفة في الانسان؟ وما هي نظرته الى العالم، وكيف يوظف ذلك في استدراج الانسان الى معرفة حقيقة نفسه والى التوحيد في النهاية؟ هذه هي الاسئلة التي تمثل الاصول التي سنطلب منها موقف الاسلام من الانسان ومن حقوقه، ومن كل أمر من أمور حياته العامة.

وبهذا المنهج فقط تبرز لنا ما تحمله نظرة الاسلام الى الانسان من حقوق اساسية وحريات، وما تحمله من واجبات ومسؤوليات. وعندئذ تستقيم لنا المقارنة بين موقف الاسلام من الانسان ومن حقوقه وواجباته من جهة، وغيره من الأنظمة الكلية، ان كانت هذه ديمقراطية أو غيرها من جهة أخرى. وعندئذ يستقيم لنا النظر في ما تقتضيه هذه النظرة وما يحقق اغراضها من أنظمة اجتماعية، ان كانت هذه سياسية أو تربوية او غيرها. وسنرى فيما بعد لماذا يفرض علينا الاسلام عند هذا النظر ان نستخدم فيه كل ما توصلت اليه البشرية من علوم ومعارف تتطابق مع الحقيقة، وكل ما توصلت اليه من فنون وتجارب في ترجمة فلسفة معينة في الانسان الى أنظمة اجتماعية، سياسية وغيرها، تلائم تلك الفلسفة وتحقق غاياتها. وسنرى كذلك لماذا يفرض علينا الاسلام ألّا نبقى في سجن ما توارثناه من فكر سياسي وفكر تربوي وفي سجن ما توارثناه من أنظمة سياسية وتربوية وغيرها، ولماذا لا تتم ترجمة نظرة الاسلام الى الانسان والى العالم بالاقتصار على تطبيق احكام الشريعة؟

٤ ــ واخيرا يجب ان نقف عند مشكلة خطيرة في حياتنا المعاصرة، وترتبط ارتباطا مباشرا بمنهجية التعامل مع الاسلام.

فالقيادات الفعالة في مجتمعاتنا من نوعين: نوع يظن ان توظيف الاسلام في حياة الامة العامة يتم بتوظيف وتطبيق الاحكام الشرعية. ونوع اخر لا يعرف كيف يوظف الاسلام، بل ولا يتوقع ان يجد فيه ما يجيب اجابة مرضية وفعالة على ما تفرزه الحياة المعاصرة من قضايا ومشكلات. تعوّد النوع الاول، بسبب صدارة الفقه الطويلة في حياة المسلمين، ان يرى المجتمع بمنظار مجموعات من الاحكام الشرعية تشمل كل مجال من مجالات حياة الامة الخاصة والعامة. وتعوّد النوع الثاني، بسبب صدارة الفكر الغربي وعلومه في ثقافته، ان يرى المجتمع بمنظار ما التقطه من قيم واتجاهات نحو التخلف والتقدم، ونحو الحديث والقديم، ونحو الدين بصورة خاصة من العلوم الغربية والحضارة الغربية.

والمخرج لهذه المشكلة الخطيرة ليس في الجمع او في التوفيق بين الفريقين، ولكنه في رواية جديدة للاسلام تبرز نظرة الاسلام الى الانسان، وتبرز ما تنطوي عليه هذه النظرة من فلسفة في الانسان، وتبرز كذلك نظرة الاسلام الى العالم والى ما يخضع له من نظام، وتبرز ما في هذه النظرة من فلسفة في ما يسمى بالطبيعة، او «عالم الشهادة» في لغة الاسلام. فتطبيق الاحكام الشرعية ليس غاية في ذاته، وانما هو جانب من جوانب توظيف الاسلام في حياة الانسان، ويخضع لأصول اكبر وأوسع من

هذه الاحكام. والاقتصار على رؤية المجتمع من جهة اخرى برؤية ما تطور في الغرب من علوم اجتماعية واقتصادية وتربوية وغيرها، رؤية تفتيتية، وتطمس كما سنرى اصلين اساسيين في نظرة الاسلام الى الانسان هما: اولا، ان هوية الانسان هوية عالمية وتشمل كل الاجناس والالوان والحضارات، وثانيا، ان المجتمع الصالح للانسان هو المجتمع الذي يستجيب اكثر من غيره لتحقيق حاجات الانسان وغاياته كما هي موجودة في فطرته هو وليس كما هي متوارثة في مجتمع معين.

وبهذه الرؤية الجديدة تقع الاحكام الشرعية في الموقع المناسب لها في نظام الحياة الكلي، وتتبدل بهذه الرؤية الجديدة فلسفة العلوم الاجتماعية والتربوية وغيرها من العلوم المعاصرة الى فلسفة تقوم من اجل تأكيد عالمية الانسان، ومن اجل تثبيت ما تقتضيه فطرة الانسان وغاياته من انظمة تربوية وسياسية وغيرها.

ولذلك نرى ان توظيف الاسلام لا يتم من منظور النظرة التقليدية له، ولا يتم من منظور الذين التقطوا اتجاهاتهم نحو الاسلام من الاتجاهات التي نشأت وتطورت نحو التراث اليهودي ــ المسيحي في الفكر وفي الحضارة الغربية وظنوا ان الاسلام دين مثل تلك الاديان. ولا يتم توظيف الاسلام الا باستخراج نظام الدين الكلي الذي يتكون من نظرة الاسلام الى الانسان والى العالم والى التوحيد.

ثانياً: فلسفة الاسلام في الانسان

يختلف الاسلام عن سائر الاديان، وعن الدين في التراث اليهودي/المسيحي بصورة خاصة، بسبب الاختلاف الكلي بين الاصول التي يقوم عليها نظام الدين فيه والاصول التي يقوم عليها في غيره.

فلقد انفرد الاسلام اولا، بالاعتراف بالانسان كما هو في فطرته وفي حقيقته، وبالاعتراف بالتالي بكفاءة قدرات الانسان العقلية وارادته الاخلاقية في التوصل الى معرفة الله والى التوحيد، وبالاعتراف بأن هذه القدرات وهذه الارادة موجودة في كل انسان، وأن كل انسان مرشح بالتالي الى التوصل الى معرفة الله والى التوحيد بمفرده وبوسائله هو، وليس بفعل «أسرار آلهية» في مؤسسة كهنوتية او في شعب معين، كما هة الامر في التراث اليهودي/المسيحي.

ولقد انفرد الاسلام ثانيا، بجعل الحقيقة كما هي موجودة في حقيقة الانسان، وكما هي موجودة في حقيقة العالم وفي حقيقة كل شيء فيه، مرجع هذا الانسان وسبيله الى معرفة الله والى التوحيد، وبجعل هذه الحقيقة ايضا المجال لانشغال قدرات الانسان العقلية ولانشغال ارادته الاخلاقية، وسبيله لتنمية هذه القدرات وهذه الارادة.

فلقد جعل الاسلام كل شيء في الوجود، وكما هو في حقيقته آية. وهي ما يحمل الأدلة اللازمة للانسان لمعرفة الله وللتوصّل الى التوحيد، وهي التي اذا انشغلت بمعرفتها قدرات الانسان العقلية كان نموّ هذه القدرات نموّاً سليما، ومرشحاً الى الوصول الى اعلى درجات النموّ.

ولقد ذكرنا من قبل ان الذي يستوقفنا في القرآن الكريم اكثر من اي شيء آخر فيه حرصه الشديد على تعريف «ما هو الانسان» للانسان أولا، وحرصه الشديد على الاحتكام الى الحقيقة كما هي موجودة في حقيقة الانسان وفي حقيقة العالم للفصل بين الحق والباطل وبين نظرة الشرك الى الوجود ونظرة التوحيد اليه.

والآن، وبقدر ما تسمح به المساحة في هذه المناسبة، سنحاول أن نبيّن ما تضمنه تعريف القرآن الكريم للانسان من خصائص ومن صفات، وما تضمنته هذه الخصائص بدورها من غايات، ثم نبين كيف وظف القرآن هذه الخصائص والصفات في تخاطبه مع الانسان، وفي دعوته له الى معرفة الله والى التوحيد، لنرى كيف كان من النتائج المصاحبة لهذا المنهج اشراك قدرات الانسان العقلية واشراك ارادته الأخلاقية اشراكا كليا وواعيا في التوصل الى ما دعاه اليه القرآن.

وأما نظرة القرآن الكريم الى الانسان فتطلب من مصدرين مختلفين من آيات القرآن. تُطلب أولا، من مجموعة معينة من الآيات تختص اختصاصا تاما وبلغة صريحة بتعريف «ما هو الانسان»، أو بتعريف صفة من صفاته الفطرية، وتبيّن ما في حقيقة الانسان من خصائص

ومن صفات، وما في هذه الخصائص من غايات. وتطلب ثانيا، وبعد ذلك، من سائر القرآن، أو من توظيفات القرآن لهذه الخصائص والصفات إما في إثارة الانسان من غفلته ومما تعود عليه وتوارثه عن آبائه، وإما في دعوته له للنظر في نظرة الشرك الى الوجود، وإما في دعوته الى التوحيد والى معرفة الله، وإما في استدراجه الى الاسلام والى اختياره له على غيره.

والآيات التي تختص بتعريف «ما هو الانسان» للانسان كثيرة ومتباعدة عن بعضها البعض في سور مختلفة من القرآن الكريم. ومع أن حصر هذه الآيات كلها أمر ضروري للتعرف على تعريف القرآن للانسان، فإننا سنختار منها ما يفي بأغراضنا هنا وسنشير الى بعضها من اجل بيان الخصائص الاساسية لفلسفة القرآن في الانسان، ولبيان ما تنطوي عليه هذه الفلسفة من تكريم للانسان ومن حقوق ومسؤوليات.

ومن اجل الاقتصاد في تحقيق هذا الغرض، وبعد مراجعة هذه الآيات كلها، رأينا ان الآيات التالية من سورة السجدة تجمع أهم واكثر الخصائص الاساسية في تعريف القرآن لفطرة الانسان، وانها تفي لرسم اهم ما يميز الانسان ككائن فريد من بين الكائنات، ولبيان ما يدفعه الى معرفة الله. وهذه الآيات هي:

الذي أحسنَ كلَّ شيء خَلَقه،
وبدأ خلق الانسان من طين،
ثم جعل نسله من سلالةٍ من ماءٍ مهين،
ثم سوّاه،
ونفخ فيه من روحه،
وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة،
قليلا ما تشكرون.

(السجدة/٧ ــ ٩).

وليس الغرض هنا تفسير هذه الآيات وشرح ما فيها من معاني، ولكن الغرض ابراز ما تنطوي عليه من مبادىء وقيم. فهذه الآيات تؤكد ما يلي:

أ ــ ان كل انسان يوجد ويأتي الى هذه الحياة نتيجة للعمليات نفسها التي يوجد بها كل انسان آخر.

ب ــ ان كل انسان يأتي الى هذه الحياة وهو يحمل في صورته وفي فطرته الخصائص والصفات نفسها التي يحملها كل انسان آخر.

ج ــ وان الانسان يعرف على حقيقته عند لحظة الولادة وقبل ان تشكل قواه العقلية وارادته بفعل البيئة التي ينشأ فيها.

وهذا هو الاصل في المساواة بين الناس، وفي تساوي كل انسان بكل انسان اخر. فأولا، وبالنسبة لصورة الانسان، كل انسان يخلق «في أحسن تقويم» (التين/٤). وكل انسان مدعوّ الى رؤية نِعَمَ خالقه عليه في هذه الصورة. «يا ايها الانسان ما غرّك بربك الكريم. الذي خلقك فسوّاك فعَدَلك. في اي صورة ما شاء ركّبك». (الانفطار/٦).

وثانيا، كل انسان في فطرته نفخة من روح الله، أكان من جماعة المؤمنين او كان من غيرها، او كان من هذا الشعب او ذاك، أو من هذا اللون أو ذاك، او ولد في هذا المكان والزمان او ذاك. وهذه «النفخة» هي ما يدفع كل انسان الى الشوق الى اصله هذا. وفي الآية التالية إشارة الى وجود هذا الشوق في غير المؤمنين. يقول تعالى: «ولئن سألتهم من خلق السموات والارض وسخر الشمس والقمر؟ ليقولنّ الله.» (العنكبوت/٦١). والدراسات المعاصرة في الحضارات تدل على ان كل حضارة بشرية، مهما كانت بدائية، فيها تصور ما للخالق حتى ولو كانت تؤمن بوجود آلهة اخرى.

وثالثا، كل انسان يحمل في هذه الفطرة أدوات المعرفة اللازمة (السمع والابصار والافئدة) لخدمة هذا الشوق ولتحقيق المعرفة التي يصبو اليها.

واخيرا، من الناس من سيكون من الشاكرين لله الذي أنعم عليهم بهذه الفطرة. ومنهم من سيكون من الكافرين ينكر هذه النعم وفضل خالقهم عليهم. وهنا إشارة الى تشكل الارادة التي ستجعلهم إما من الشاكرين واما من الكافرين.

هذا التعريف للانسان، والذي قد يبدو بسيطا للبعض،

يؤكد مبادىء جديدة لم تكن معترفا بها قبل الاسلام كما سنرى قريبا، فهو يؤكد:

أ ـــ ان المساواة بين الناس، كل الناس، تبدأ وتنتهي في خصائص الفطرة الانسانية التي يشترك فيها كل انسان،

ب ـــوان مصير كل انسان موجود كله في هذه الفطرة الانسانية التي يأتي بها كل انسان.

فكل انسان يخرج من بطن امه بالحال وبالفطرة التي يخرج بها كل انسان آخر: «والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا، وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون». (النحل/٧٨).

وتذكرنا هذه الآية بصداها في الفكر التربوي الغربي الحديث الذي يبدأ بنظرية جون لوك في ان المولود البشري يولد «كالصفحة البيضاء» سليما ومستعدا للتشكل العقلي والاخلاقي بعد تلك اللحظة من حياته، بخلاف العقيدة المسيحية في الغرب.

المهم ان الانسان في حقيقته لا يعرف بتصور عقائدي له كما تعرفه المسيحية مثلا، ولا يعرف في حقيقته بعد ان يخضع لفعل البيئة التي ينشأ وينمو فيها في تشكل عقليته واخلاقه، ولكنه يعرف في تلك اللحظة التي يأتي بها الى هذه الحياة. وحصر تعريف القرآن الكريم للانسان في هذه اللحظة ف غاية الاهمية للنظر في مصير الانسان، وللنظر في الحقوق والحريات التي يجب ان تلازمه.

فهل تعرف هوية الانسان بهوية الجماعة التي يولد فيها كما تعرف في اليهودية مثلا؟ وهل يتقرر مصيره العقلي والاخلاقي بفعل ما توارثته جماعته من دين ومن عقائد ومن اساطير ومن حضارة؟ فهل ينبغي ان يصير اليهودي يهوديا لانه ولد في شعب اليهود؟ وهندوسيا لانه ولد في جماعة الهندوس؟ ومسلما لانه ولد في جماعة المسلمين؟... وهكذا.

ام ان مصيره موجود كله اصلا في فطرته هو، وليس في تراث الجماعة التي يولد فيها، وليس في حضارة المكان والزمان الذي يولد فيه.

أثار الاسلام في الوقوف في تعريف «ما هو الانسان» عند لحظة الولادة قضية لم تعرف من قبل، وصارت اليوم ومنذ عهد قريب فقط أهم قضية في التربية الحديثة، ولقد اكد الرسول صلى الله عليه وسلم هذه القضية في حديث الفطرة. فالذي ينبغي ان يقرر مصير الطفل المولود في نموه العقلي والاخلاقي (وهو نموه الديني في لغة الاسلام) ليس دين او عقيدة او قيم آبائه، بل فطرته التي جاء بها عند الولادة. والتربية اليوم، ومنذ فترة قصيرة فقط، صارت ترى ان مهمتها الاساسية حماية الطفل وتحريره من آثار بيئته من جهة، وتوفير خير المواقف لانشغال قدراته العقلية واستعداداته الاخلاقية ولتنميتها من جهة اخرى.

وبالوقوف عند لحظة الولادة في تعريف «ما هو الانسان» كشف الاسلام عن هوية الانسان الحقيقية. فالانسان يعرف على حقيقته قبل ان تتشكل فيه قدراته العقلية واستعداداته الاخلاقية، وقبل ان يتطبع بفعل ما ينشأ فيه وينمو من تراث ومن عقائد ومن قيم. هذه الهوية هي في صورته كانسان، وفي ما نفخ الله فيه من روحه، وفي السمع والابصار والافئدة، وفي الارادة اللازمة لدعم شوقه الى المعرفة والى التوحيد. وهذه الهوية هي ما يجمع بينه وبين كل انسان اخر، وهي ما ينبغي ان يقرر نظام الحياة الصالح لكل انسان.

اما اختلاف الشعوب والالوان والالسن، فهذه رآها القرآن الكريم كآيات اخرى من آيات الله في خلقه: «ومن اياته خلق السموات والارض، واختلاف ألسنتكم والوانكم، ان في ذلك لآيات للعالمين.» (الروم/٢٢). فهذا الاختلاف وان حمل اسرارا تدعو الى النظر والى العلم، فانه لا يغير من ان الفطرة واحدة في كل انسان. فالناس كلهم خلقوا «من نفس واحدة» (النساء/١).

وبهذه الهوية اكد الاسلام عالمية الانسان، وساوى بين الناس جميعا وبين جميع الشعوب. وتوافقاً مع هذا المبدأ في المساواة انفرد القرآن الكريم بتأكيد ان ما من امة الا وارسل الله لها رسولا منها يخاطبها بلسانها. (ابراهيم/٤)، وانه «لكل قوم هاد» (الرعد/٧). فلم يختص اله الاسلام بشعب دون غيره كما اختص اله اليهودية بشعب اليهود، ولا ميّز شعبا على شعب كما ميز اله اليهودية واله المسيحية.

وبهذه الهوية ايضا اخضع الاسلام كل ما يتوارثه المجتمع البشري من دين وعقائد وحضارة لحاجات فطرة الانسان. فالمجتمعات البشرية تقاس في رقيها من منظور الاسلام بقدر

اعترافها او عدم اعترافها بالانسان كما هو في فطرته، وبحاجاته هو في النمو وفي الرقيّ، وحق الانسان الاول والاساسي على كل مجتمع بشري ان يعترف به كانسان، ويعترف له بما في فطرته من حاجات. وان يتم هذا الاعتراف بتنظيم حياة المجتمع كلها من اجل هذه الغاية.

والمجتمعات التي تدعي انها تحترم ما يسمى بحقوق الانسان ولا تعترف بالانسان كانسان ادعاءاتها كاذبة او منقوصة. واسرائيل خير مثل على هذا الادعاء. فهي لا تعترف بالانسان، وتميز بين اليهود وغير اليهود، ولا تطبق حقوق الانسان على غير اليهود بمثل ما تطبقها على اليهود.

واعتراف الاسلام بالتفاوت بين الناس في واقع حياتهم لا يلغي المساواة الفطرية التي يلتقي فيها جميع الناس. فلقد فضل الله المجاهدين على القاعدين (النساء/٩٥). و«فضل بعضكم على بعض في الرزق» (النحل/٧١). والفضل كله بيد الله «يؤتيه من يشاء» (ال عمران/٧٣). التفاوت بين الناس في ما عندهم من رزق او علم او جاه، او مسؤولية،... الخ حقيقة، ولكنهم كلهم يبدأون بفطرة واحدة، ثم ماذا يحدث لأي منهم؟ فهذه تتوقف على عوامل متنوعة وكثيرة، من اهمها وعي الانسان لما فيه من فطرة، ومسؤوليته نحو ما في هذه الفطرة من قوى وطاقات، ولذلك كان الانسان في ابتلاء دائم، وحتى في ما فضله الله به على غيره.

هذا، وتجسيدا لاعتراف الاسلام بالانسان كما هو في حقيقته، لم ينكر الاسلام بشرية الانسان كما انكرتها الاديان من قبل. بل على العكس، جعل مصير الانسان كله موجودا في هذه البشرية، وجعل كماله كله موجودا فيها ايضا. لم يوجد الانسان ليخرج عن بشريته، كما كان الامر في المسيحية مثلا، بل ليظل في هذه البشرية وليحقق كماله وهو ما زال فيها. كماله كله موجود في فطرته عند الولادة، في حبه لمعرفة الله تعالى، وفي طاقاته العقلية وارادته الاخلاقية. واما ما في بشريته من حب للشهوات (آل عمران/١٤)، ومن حب للاستكبار ولانكار نعم المنعم (الكفر: الاسراء/٦٧)، ومن خوف وقلق وغضب وغيرها من الصفات، فمهمة الدين فيها ترويضها وليس استئصالها. الاسلام كنظام في تنظيم حياة الانسان يقوم كله على اساس الاعتراف بالحقيقة، وبأن وجود هذه الحقيقة في الانسان وفي غيره لا بد وان يكون من ورائه حكمة في علم الله وارادته تعالى. فاذا وجدت في الانسان هذه النزعات والصفات، فتوجد لحكمة معينة. ويكون تعامل الانسان معها حسنا اذا صدر عن معرفة ما في وجودها من حكمة. «أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا...؟» (المؤمنون/١١٥)، «وما خلقنا السماء والارض وما بينهما لاعبين». (الانبياء/١٦). هذه الآيات تمثل مبدأ عاما في تعامل الانسان مع كل موجود، ان كان ذلك في نفسه او خارجها.

وهذا الاحترام لكل ما هو موجود اصل اساسي في مفهوم العبادة في الاسلام. وبهذا الاصل اتسع مفهوم العبادة ليشمل في الاسلام التعامل مع كل شيء موجود. يتعامل معه اولا كآية من آيات الله، ويتعامل معه ثانيا، بادراك حكمة الله في وجوده، وبالاشتراك في تجسيد هذه الحكمة في توظيفه لما وجد من اجله.

فحب الشهوات لم يوجد في الانسان عبثا، وكذلك حب الاستكبار، والغضب والخوف والقلق وغيرها. كل منها وجد لحكمة ومن اجل غايات. ومعرفة الحكمة من وجوده في الانسان هي سبيل الانسان للتعامل معها. وخير ما يمكن ان يرجع اليه القارىء في هذا الباب الكتب العشرون الاخيرة من احياء علوم الدين للامام الغزالي.

وهكذا تمت بالاسلام المصالحة بين فطرة الانسان المعرفية والاخلاقية من جهة، وبين «طبيعته» البشرية من جهة اخرى، في نظام يحترم كل شيء في الانسان. فلم تكن مهمة الدين استئصال الشهوات وحب الاستكبار والغضب وغيرها، كما كانت مهمته في المسيحية مثلا، بل كانت في تربية هذه النزعات والصفات لتحقق، ككل شيء اخر في الانسان، الحكمة من وجودها فيه. فالانسان في ابتلاء دائم لوجود تناقض اساسي بين فطرته من جهة وبين هذه النزعات والصفات من جهة اخرى، وحريته في النهاية هي في نوع ترويضه لهذا التناقض. واول من يظلم الانسان هو الانسان نفسه (البقرة/٢٣١)، وآيات كثيرة غيرها. فهو الكائن الذي يحمل في فطرته «الامانة» (الاحزاب/٧٢)، وبقدر احترامه لما في هذه الفطرة من طاقات، وبقدر تجسيد هذا الاحترام في توظيف هذه الطاقات يؤدي هذه «الامانة»، وحريته في النهاية هي بقدر مسؤوليته عما جعل الله فيه من قدرات عقلة وإرادة

اخلاقية، وبكيفية استخدامه لما جعل فيه من شهوات ونزعات وترويضه لها.

وتأكيدا لهذه المبادىء كلها في فلسفة الاسلام في الانسان، وفي توافق تام معها، تغيرت بالاسلام نظرة الدين الى الرسول، وتغيرت نظرته الى الوحي، وتغير دور الرسول في حياة الانسان.

فلم يكن محمد (ص) الا واحدا من البشر، فيه ما في كل انسان آخر من فطرة، وما في كل انسان من نزعات وصفات. فاذا جعله القرآن أسوة (الاحزاب/٢١) لغيره من البشر، فذلك لانه يظل كانسان في متناول فهم البشر وواحدا منهم. «لقد جاءكم رسول من انفسكم، عزيز عليه ما عنتّم، حريص عليكم، بالمؤمنين رؤوف رحيم» (التوبة/١٢٨). محمد لا يملك «أسرارا كهنوتية» تحول الانسان، كما هو الامر في التراث اليهودي ــ المسيحي، وكما سنرى قريبا، من حال بشرية الى حال «مقدسة»، بل ولا يستطيع بمشيئته هو ان يهدي من يحب. (القصص/٥٦). وكما صوره لنا القرآن الكريم، فانه هو ايضا يتدرج في الكمال من حال «ووجدك ضالا فهدى» (الضحى/٧) الى ارقى درجة موجودة في بشرية الانسان في «اليوم اكملت لكم دينكم، واتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الاسلام دينا». (المائدة/٣)، وفي «وانك لعلى خلق عظيم». (القلم/٤) مرورا بمواقف نتفهمها تفهما كاملا كبشر مثل موقف «عبس وتولى» (عبس/١)، ومثل موقف «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ...» (الانعام/٥٢) عندما همّ الرسول (ص) في احدى الرويات بطرد اصحابه من الموالي من مجلسه استجابة لرغبة بعض السادة من قريش، وهذا التدرج في حياة الرسول الى الكمال وكما صوره القرآن الكريم خليق بالدراسة لانه يؤكد احترام الاسلام لبشرية الانسان.

وتوافقا مع اعتراف الاسلام بكفاءة قدرات الانسان العقلية وارادته الاخلاقية في التوصل بمفرده الى الايمان بالله والى التوحيد، لم تقتصر وظيفة الوحي كما اقتصرت قبل الاسلام على تزيل الوصايا لضبط سلوك الانسان، بل صارت اهم وظائفه دعوة الانسان الى تفسير هذا الوجود بالتوحيد، واشراك الانسان في استكشاف هذا التفسير واختياره على الشرك. وصار بالتالي توظيف الانسان لقدراته العقلية وارادته الاخلاقية، وتوظيف ما تكشفه له الحقيقة كما هي موجودة في الانسان وفي العالم من اهم وظائف الوحي والدين. ولذلك صارت الرسالة في مجملها بيانا للرشد وبيانا للغي، ثم يترك امر الاختيار للانسان. «وقل الحق من ربكم، فمن شاء فليؤمن، ومن شاء فليكفر». (الكهف/٢٩).

وتوافقا مع احترام الاسلام للانسان بالاعتراف به كما هو، وبالاعتراف له بكفاءة قدراته العقلية وارادته الاخلاقية، جعل الاسلام كل انسان بالغ عاقل مسؤولا مسؤولية شخصية وتامة عما يفعل بنفسه وبحياته. فأكد القرآن الكريم في آيات كثيرة مبدأ هذه المسؤولية الشخصية في مثل قوله تعالى: «ولا تكسب كل نفس الا عليها، ولا تزر وازرة وزر اخرى» (الانعام/١٦٤). وأكد الفقه الاسلامي مقابل ذلك سيادة الشرع (او القانون باللغة الحديثة) على كل انسان في المجتمع وبدون استثناء، فلم يكن في المجتمع الاسلامي من كان «فوق القانون».

وتوافقا مع ثقة الاسلام بكفاءة قدرات الانسان العقلية في الفصل بين الحق والباطل، ادخل الاسلام بعدا جديدا في نظام ايمان الانسان بالله، وفي نظام الدين الذي يصلح لتحقيق ما في فطرة الانسان من طاقات.

فلقد جعل سبيل الانسان الى الايمان بالله معرفة الانسان لحقيقة مخلوقات الله. وجعل معرفته لهذه المخلوقات سبيله الى تحقيق ما في فطرته من قدرات عقلية وارادة اخلاقية. وصار شوقه الى معرفة الله لا يتم له الا بمعرفة الحقيقة كما هي موجودة في كل شيء، في الانسان نفسه وفي العالم، وهذه المعرفة لا تتم له الا بتوظيف قدراته العقلية وارادته الاخلاقية توظيفا متحررا وسليما.

جعل القرآن الكريم الوجود كله ابتداء «بعالم الشهادة»، وكما يظهر في حقيقة السموات والارض، وكما يظهر في حقيقة كل شيء، وفي كل ظاهرة وفي كل حدث، وكما يظهر في حقيقة الانسان، جعل هذا كله آيات، كل آية منها، كبيرة كانت او صغيرة، عظيمة او حقيرة، تحمل في ذاتها كل الادلة اللازمة للانسان لمعرفة خالق هذا الوجود ولمعرفة صفاته وافعاله. فحتى البعوضة آية تحمل في حقيقتها الادلة على وجود هذا الخالق: «ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها....» (البقرة/٢٦).

ولذلك نرى ان الامام المحاسبي جعل القرآن «قرآنين»، قرآنا هو الكتاب الذي نزله الله على نبيه (ص)، وقرآنا هو الوجود وكل شيء فيه. فالآية في المصحف والاية في الوجود كل منهما يحمل الادلة الى الله.

وانشغال الانسان في كشف الحقيقة وكشف ما تحمله من ادلة على الله، ليس سبيل الانسان الى الايمان والى التوحيد فقط، بل هو سبيله الى تنمية ما فيه من قدرات عقلية وارادة اخلاقية الى اقصى ما في فطرته من طاقات. وصار الدين في الاسلام وظيفيا ليس فقط في تحصيل الايمان بالله، بل ووظيفيا ايضا في تحقيق غايات الانسان الموجودة في فطرته بالطاقة.

لم يعد الدين «اسرارا» مبهمة خارج طاقات الانسان في الفقه والفهم، وحكرا على مؤسسة كهنوتية تملك تلك «الاسرار» كما هو الامر في اليهودية وفي المسيحية، وكما سنبينه قريبا. بل صار شيئا مكشوفا وموجودا في كل حقيقة، في حقيقة الانسان وفي حقيقة العالم. وصار في متناول كل انسان بالغ عاقل.

قام الدين في الاسلام على اساسين لم يكن لأي منهما وظيفة في الدين قبل الاسلام. الاساس الاول، ان كل انسان بالغ عاقل يملك في قدراته العقلية القدرة على كشف الحقيقة وعلى الاستدلال بها على الحق، والاساس الثاني، ان هذه الحقيقة موجودة في حقيقة الانسان وفي حقيقة العالم وحقيقة كل شيء فيه، وانها هي ما تتجلى فيها صفات الله تعالى وافعاله.

كل اساس من هذين الاساسين له وجود ذاتي وموضوعي، وله حقيقته الخاصة به، وهو موجود خارج اي تراث ديني او عقائدي، او فكري او حضاري، وخارج اي تصور له او علم به.

والدين الذي يصلح للانسان يقوم على هذين الاساسين، او بكلام اخر على مرجعين جاء بهما الاسلام من خارج اي تراث وكل تراث. فالانسان وكما هو في فطرته، وبمعزل عن الجماعة التي يولد فيها وعن تراثها، وبمعزل عن المكان والزمان الذي يولد فيه. والحقيقة كما توجد في حقيقة الانسان وفي حقيقة العالم وبمعزل عن تصور الانسان لها او علمه بها، هما الاساسان الخالدان والثابتان اللذان اقام الاسلام الدين عليهما. اما علم الانسان بهما فقد يتغير ويتبدل، وقد يقترب او لا يقترب من حقيقة هذين الاساسين، ولكنه يظل علما نسبيا، ويكون حظ هذا العلم من الاقتراب من حقيقتها اكبر، اذا هو انطلق من اعتراف الانسان بهذين الاصلين.

وكذلك تاريخ الانسان ايضا يخضع كما يخضع علمه لهذين الاصلين الثابتين. ولا يكون هذا التارتيخ هو الاكثر تحقيقا لغايات الانسان الا اذا توجه لتحقيق ما في فطرة الانسان من غايات، وتوجه بما تكشفه الحقيقة كما هي موجودة في الانسان وفي العالم.

وبهذين الاصلين جعل الاسلام نفسه خارج التاريخ لانه وضع الاسس لتوجيه التاريخ. فهو اذا كان صالحا لكل زمان ومكان، فذلك لأن الاسس التي يقوم عليها نظامه اسس مطلقة وثابتة ولا تتغير بتغير الزمان والمكان.

ولا تستكمل اغراضنا هنا في النظر في نظرة الاسلام الى الانسان الا بذكر الغايات التي حددها القرآن للجنس البشري ككل. فهذه استخلصها علماؤنا، ومنهم الراغب الاصفهاني في كتاب «الذريعة الى مكارم الشريعة» في ثلاث غايات تحت باب «ما لأجله أوجد الانسان»، هي:

اولا، **عمارة الارض**، المذكورة في قوله تعالى: «واستعمركم فيها...» (هود/٦١).

ثانيا، **عبادة الله**، المذكورة في قوله تعالى: «وما خلقت الانس والجن الا ليعبدون» (الذاريات/٥٦). وهذه لا تتم الا بمعرفة الله، بمعرفة ما في الكون من آيات.

وثالثا، **خلافة الله**، المذكورة في قوله تعالى: «ويستخلفكم في الارض فينظر كيف تعملون» (الاعراف/١٢٩) و«اني جاعل في الارض خليفة» (البقرة/٣٠). وتتم هذه باقتداء الانسان بالباري عز وجل في صفاته وافعاله.

هذه الغايات هي غايات الانسان بصورة عامة، وهي غايات امة المسلمين بصورة خاصة. فكيف يتم لهذه الامة تحقيق هذه الغايات؟ وما هي الانظمة والمؤسسات اللازمة لذلك؟ وما هي العلوم والمعارف والفنون (في بناء الانظمة وفي تطويرها) اللازمة لذلك؟ هذه اسئلة لا مفر منها اذا

ارادت هذه الامة السعي الى ما وجدت من اجله.

واخيرا، يجب ان نشير الى ان للاسلام لغته الخاصة به. ونقل العبارات من خارجه اليه، ونقل عباراته الاساسية الى غيره من الانظمة يحمل مزالق منهجية فيها تضليل كبير. فالدين في الاسلام ليس الدين في غيره. والآله في الاسلام ليس الآله في غيره، والانسان في الاسلام ليس الانسان في غيره، ولا الامة فيه هي الامة في غيره، وهكذا. وكل عبارة من هذه العبارات الاساسية تفهم في اطار النظام الكلي الذي تنتمي اليه. وعبارة «الانسان» بصورة خاصة لا مثيل لها في الاديان والانظمة الكلية الاخرى، لانها تشمل في الاسلام كل آدمي من بني البشر، ذكرا كان ام انثى، ابيض او اسود، يهوديا او مسيحيا او مسلما، من هذا الشعب او من غيره، ومن هذا العصر والمكان او من غيره.

ثالثا: الانسان قبل الاسلام

هذا، وقد لا نقدر الاسلام حق قدره، ونقدر ما احدثه من تغييرات جذرية واساسية في نظرة الانسان الى الانسان، ونقدر اهمية هذه التغييرات في مجرى مسيرة الحضارة البشرية ما لم نذكر نظرة الدين الى الانسان قبل الاسلام.

لم يعترف اي دين من الاديان التي كانت موجودة قبل الاسلام بالانسان كما هو في فطرته وفي حقيقته البشرية، لقد انكرت تلك الاديان كلها الانسان وهو في حاله البشرية، ورأت مهمة الدين ووظيفته الاساسية «خلاص» الانسان من حاله البشرية الى حال اخرى «مقدسة». فالانسان في حال من «الموت» وهو في حاله البشرية في نظرة المسيحية مثلا، ولا يخرج من تلك الحال الا بفعل قوة «اسرار آلهية» اودعها آله المسيحية في الكنيسة وفي طقوسها. وبفعل تلك «الاسرار» يصير «مقدسا» من جماعة «المقدسين»، او من «الشعب المختار». واما في اليهودية فلا يكون الانسان «مقدسا» من «المقدسين» ومن «الشعب المختار» عند آله اليهودية الا اذا ولد من ام يهودية في شعب اليهود. ولادته في ذلك الشعب هي في ذاتها «سر آلهي» وهبة من إله اليهودية.

انكرت كل من اليهودية والمسيحية الانسان، ولم يعترف اي منهما به الا اذا كان، او صار، من «المقدسين» ومن «الشعب المختار». وأما من بقي خارج ذلك «الشعب» فلا يستطيع بفعل ما في فطرته هو من شوق الى معرفة الله، ومن قدرات عقلية وارادة اخلاقية ان يصير من «المقدسين». فهذه لا فعل لها في «خلاصة» من حاله البشرية. وعليه ان يخضع نفسه لفعل «الاسرار الآلهية» التي اودعها آله المسيحية في الكنيسة، او ان يكون من المحظوظين الذين ولدوا من أم يهودية. الانسان وكما هو في فطرته لا يستطيع ان يصير من المؤمنين في المسيحية او في اليهودية بمفرده وبوسائله الفطرية، وعليه ان يخضع «لأسرار» لا يستطيع ان يفقه ما فيها من قوة فعّالة فيه، وان يخضع بالتالي للمؤسسة الكهنوتية التي تحمل تلك «الاسرار».

لم تكن لقدرات الانسان العقلية ولا لارادته الاخلاقية وظيفة في ايمانه، ولم يكن ايمانه ثمرة لتوظيف تلك القدرات وتلك الارادة، من كان من شعب اليهود في اليهودية، ومن اخضع نفسه لكنيسة في المسيحية، يتحقق له «الخلاص»، ومن بقي خارج اليهود او خارج الكنيسة بقي معزولا ومن المنكرين. الجماعة ممثلة في المؤسسة الكهنوتية هي من يملك حدوث الايمان في الانسان، وهي من يملك شروط الايمان. وبدون وجود هذه الجماعة، الشعب في اليهودية والكنيسة في المسيحية، فلا ايمان للانسان. وهكذا نجد ان العنصرية مبنية في البنية الداخلية لكل من اليهودية ومن المنسيحية. فالانسان في كل منهما في واحدة من حالين: حال بشرية مرفوضة وغير معترف بها، وحال «مقدسة» تفصل اليهود عن سائر البشر في اليهودية، وتفصلهم عن سائر البشر في المسيحية.

الولادة في التراث اليهودي ــ المسيحي ليست كالولادة في الاسلام. والناس لا يأتون الى هذه الحياة في ذلك التراث بالحال وبالفطرة التي يأتون بها في الاسلام. فلا يأتون بفطرة هي واحدة في كل انسان، وترشح كل انسان ليصير من المؤمنين بمفردة وبما نفخ الله فيه من روحه، وبما جعل فيه من قدرات عقلية وارادة اخلاقية. الولادة هي اللحظة التي تفصل بين البشر في ذلك التراث. ولذلك تبدأ حياة الانسان في المسيحية «بالولادة الثانية»، والتي تتم للانسان بفعل «اسرار» في طقوس معينة تملكها

الكنيسة. فبينما تجمع لحظة الولادة كل انسان بكل انسان آخر في الاسلام لوجود فطرة واحدة في كل انسان، فانها هي اللحظة التي ينقسم فيها الناس الى «مقدسين» و«غير مقدسين» في التراث اليهودي ــ المسيحي. وبينما تحمل لحظة الولادة في الاسلام كل الطاقات اللازمة للانسان ليتم له ايمانه بتوظيفها بعد ذلك في مرحلة بلوغه وسلامة عقله، فان الولادة في ذلك التراث هي ما يتم به الايمان للانسان، وقبل ان يستطيع توظيف ما في فطرته من قدرات عقلية وارادة اخلاقية. فلا توظيف هذه القدرات ولا توظيف علم الانسان بالحقيقة له دخل او دور في هذا الايمان.

ولذلك وتوافقا مع نظرته الى الانسان، رفض الاسلام عقيدة «الاختيار» في التراث اليهودي ــ المسيحي، ورد اليهود والمسيحيين الى البشر في قوله تعالى: «واذ قالت اليهود والنصارى نحن ابناء الله واحباؤه، قل فَلِمَ يعذبكم الله بذنوبكم؟، بل انتم بشر ممن خَلَق.» (المائدة/١٨).

رابعا: الانسان والأمة في الاسلام

افترق الاسلام عن ذلك التراث في كل اصل من الاصول الاساسية التي يقوم عليها نظام الدين، فكان دينا يختلف اختلافا كليا عن الدين في تراث الحضارة الغربية. فالانسان في نظرة الاسلام ليس الانسان في نظرة ذلك التراث، ولا الحقيقة كما هي في حقيقة الانسان وحقيقة العالم هي الحقيقة في ذلك التراث، ولا الآله في الاسلام هو الآله في ذلك التراث. والحكم على الاسلام، وكأنه دين مثل الدين في ذلك التراث، جهل بالاسلام وجهل بذلك التراث. فمن منظور الاسلام يأتي كل انسان الى هذا العالم وفيه هو الطاقات اللازمة ليصير بمفرده وبتوظيفه لتلك الطاقات من المؤمنين، ومن منظوره ايضا، كل شيء في الوجود اية اذا عرفه الانسان كما هو في حقيقته استدل به على وجود الخالق وعلى صفاته وافعاله، والآله من هذا المنظور ليس آلها يختص بشعب او بجماعة، بل هو خالق كل شيء وآله الناس جميعا مؤمنين كانوا او غير مؤمنين.

هذه الثقة بالانسان وبكفاءة قدراته العقلية وارادته الاخلاقية في التوصل الى الايمان، كانت الاصل في تحرير الانسان من الشرك ومن اباطيل الاديان الكهنوتية ومن هيمنة الكهنوت عليه، وكانت الاصل في تأكيد عالمية الانسان. ثم جعل الحقيقة كما هي موجودة موضوعيا وذاتيا وخارج اي تراث ديني او عقائدي او فكري، مرجع الانسان للفصل بين الشرك والتوحيد، وبين الباطل والحق، كان الاصل الثاني في تحرير دين الانسان من المتوارث في بيئته الدينية والحضارية، وتحرير الانسان بالتالي من ذلك المتوارث. الانسان ككائن قادر على كشف الحقيقة وعلى الاستدلال بها، والانسان والعالم وكل ما فيه كموضوع هذه الحقيقة هما الاساسان اللذان غيّر بهما الاسلام مفهوم الدين ووظائفه وغاياته في حياة الانسان، وغيّر بهما دور الانسان في الدين وفي حياته، وغيّر بهما موقعه في الجماعة وعلاقاته بها وعلاقاتها به. وهما الاصلان اللذان انطلقت منهما حضارة الغرب الحديثة وقامت عليهما. من اين التقطت تلك الحضارة هذين الاصلين؟ هذا ما زال ينتظر دراسة المسلمين.

جاء الاسلام بهوية جديدة للانسان، وبفلسفة جديدة في الانسان. واحدث من اجل استيعاب هذه الهوية امة جديدة لم يكن لها مثيل بين الامم من قبل. لم تقم على اسس عرقية او دينية او لونية او حضارية، وانما قامت على اساس الاعتراف بالانسان كما هو في فطرته وفي حقيقته، والاعتراف له بالتالي بكفاءته في التوصل الى التوحيد، وفي التوصل الى نظام الحياة الذي يقوم على هذا التوحيد، فصارت امة مفتوحة لكل انسان رأى نفسه كما يراه الاسلام، واستخدم ما جعل الله فيه من قدرات عقلية وارادة اخلاقية، وتحرر من هيمنة البشر ومن هيمنة العقائد المتوارثة، وتوجه بالحق كما يتجلى في حقيقة الانسان وفي حقيقة العالم.

وأمة المسلمين ليست كغيرها من الامم، قبيلة اخرى من القبائل الدينية لها خصوصيات طقوسية وعرقية وغيرها تعزلها عن البشر. ولها تراثها ومنجزاتها في مسيرة الحضارة البشرية. بل هي امة كل انسان تحرر من تراثه ومن عقائده، وأدرك ان خير حياة له، وخير مصير له موجود في الفطرة البشرية التي يأتي بها الى هذه الحياة. وادرك ايضا ان خير ما يمكن ان يتوجه به في تنظيم حياته موجود في حقيقة الانسان نفسه وفي حقيقة العالم من حوله. ومن هذا الموقع ينظر ويقدر في تراثه وفي كل تراث بشري

ليستخلص منه ما يتطابق مع حريته كانسان وما يتطابق مع الحقيقة في نفسه وفي العالم. وما تتوصل اليه البشرية من علم فكله لهذه الامة، أكان من كشف افراد فيها او لم يكن، وتجارب الامم في تنظيم مجتمعاتها وفي تجسيد فلسفة معينة في الانسان كلها ملك لهذه الامة ايا كان مصدرها. وامة المسلمين، انتصارا منها للانسان كما يراه الاسلام، وانتصارا منها للحقيقة كما يراها الاسلام، وضعت نفسها في مواجهة جهادية ودائمة مع غيرها من الامم التي لا تعترف بالانسان ولا تجعل الحقيقة هي ما يتوجه به الانسان في تفسيره للوجود وفي تنظيم حياته على ضوء ذلك التفسير. وبسبب هذه النظرة الى الانسان كانت «خير امة اخرجت للناس». (آل عمران/١١٠).

فما هي الحقوق الاساسية التي ينبغي ان تلازم هذا الانسان في هذه الامة؟

وما هي الانظمة الاجتماعية، السياسية والتربوية وغيرها، القادرة على رعاية هذا الانسان، وعلى حمايته من اي طغيان؟

هذه تطلب من فلسفة الاسلام في الانسان، وليس كما طلبها المسلمون تاريخيا. فالاسلام، كما حاولنا ان نبين، لا يلتزم بتراث تاريخي او سياسي معين، الا بقدر توافق ذلك التراث وتطابقه بالاصول التي يقوم عليها نظام الدين في الاسلام، اي بنظرة الاسلام الى الانسان، وبنظرته الى العالم وبنظرته الى الالوهية.

خامسا: حقوق الانسان في الامة وفي المجتمع

الأصل في حقوق الانسان.

١ ــ لا تطلب حقوق الانسان في الاسلام من مجموعة من النصوص والاخبار التي تبدو في ظاهر لغتها قريبة او شبيهة من المعاني او القيم التي تتضمنها حقوق الانسان المعروفة في اعلان الامم المتحدة.

فالنصوص والاخبار ليست اكثر من تجسيد وتأكيد لمبادىء وقيم في اصول اوسع واكبر من هذه النصوص والاخبار، اولا، والاسلام لا يقاس بغيره حتى وان كان ذلك ما يمثل خلاصة ما اتفقت عليه دول العالم في هذا العصر ثانيا. ولكنها تطلب كما حاولنا ان نبين في هذا البحث من نظرة الاسلام الى الانسان، ومما تنطوي عليه هذه النظرة من فلسفة في الانسان.

٢ ــ وأول مبدأ تقوم عليه نظرة الاسلام الى الانسان هو مبدأ الاعتراف بالانسان كما هو في حقيقته. ويتضمن هذا الاعتراف ما يلي:

إن كل انسان أيا كان عرقه او لونه او دينه او حضارته، وأيا كان المكان والزمان الذي يولد ويعيش فيه، يولد على فطرة هي فطرة واحدة في كل انسان آخر.

وان هذه الفطرة موجودة كلها في الانسان عند لحظة الولادة، وان الانسان يعرف على حقيقته عند هذه اللحظة، وقبل ان تتشكل فيه قواه العقلية وقيمه الاخلاقية واتجاهاته بفعل ما في البيئة التي ينشأ وينمو فيها من تراث ديني او عقائدي او فكري او حضاري.

وان هذه الفطرة تشمل نفخة من روح الله تعالى، وتشمل أدوات المعرفة (السمع والابصار والافئدة) التي يستطيع بها ان يخدم ما فيه روحه من شوق الى معرفة الله تعالى. وتشمل ايضا ارادة تدعم هذه الادوات وتدعم ما قد تنتهي اليه من معرفة ومن مواقف.

وان هذه الفطرة هي ما يرشح كل انسان لمعرفة الله تعالى، وهي ما يدفعه الى السعي وراء هذه الغاية.

وان معرفة الله تعالى لا تتم للانسان الا بمعرفة آيات الله في خلقه، اي بمعرفة الحقيقة كما هي موجودة في حقيقة الانسان وفي حقيقة العالم وكل شيء فيه.

وان معرفة آيات الله في خلقه لا تتم للانسان الا اذا تحرر من نظرة الشرك ورأى العالم وما فيه مجردا من الآلهة غير الله، ووظف ما جعل الله في فطرته من قدرات عقلية وارادة

اخلاقية في تحصيل هذه المعرفة.
وان نمو ما جعل الله في الانسان من قدرات عقلية وارادة اخلاقية نموا سليما ومطردا. لا يتم له الا بانشغال هذه القدرات وهذه الارادة في تحصيل هذه المعرفة.

وهذا الاعتراف بالانسان يعني اذن الاعتراف له بان ما هو موجود في فطرة الانسان بالطاقة وعند لحظة الولادة يحمل خير مصير للانسان في هذه الحياة. ولذلك كان اهم حق من حقوق الانسان، واصل حقوقه كلها الاعتراف به كانسان، والاعتراف له بالتالي بان ما في فطرته من طاقات هو أهم حاجاته في هذه الحياة. وهو ما ينبغي ان تصدر عنه جميع حقوقه الاخرى، وتخضع له.

وبدون هذا الاعتراف يظل الانسان يتشكل في قدراته العقلية، وفي قيمه الاخلاقية، وفي اتجاهاته نحو نفسه ونحو الغير بفعل ما توارثته بيئته التي ينشأ وينمو فيها من عقائد ومن دين ومن حضارة. ويظل في سجن هوية الجماعة التي يولد فيها وينتمي اليها، وفي سجن ما تؤصل فيه تلك الجماعة من ولاء وانماء. فحتى وان اعترفت هذه الجماعة بما يسمى بحقوق الانسان، فمصير الانسان فيها هذا السجن الا اذا اعترفت به كانسان ووجهت كل ما فيها من انظمة ومؤسسات لتحقيق غايات هذا الانسان. والامثلة على عدم الاعتراف بالانسان كما بينا كثيرة، وتشمل جميع الدول المتقدمة، وتشمل اسرائيل بصورة خاصة.

الانسان في المجتمع وفي الامة

١ ــ الانسان لا يوجد للجماعة من موقف الاسلام. وانما يوجد لغايات جعلها الله كلها في فطرته. وامة المسلمين قامت اصلا من اجل تحقيق ما في هذه الفطرة من طاقات ومن غايات. ولذلك رفض الاسلام كل جماعة لا تقوم على وحدة الفطرة في الانسان، ولا تقوم على عالمية الانسان. وتقوم امة المسلمين بوظائفها نحو من فيها اذا هي وفرت له ما تقتضيه فطرته من رعاية، ووفرت له ما تقتضيه من حماية.

٢ ــ أمة المسلمين ليست مؤسسة ثيوقراطية، لانها لا تملك «اسرارا آلهية» يحتاج اليها من كان منها. ولأنها لا تمثل ارادة الآله كما تمثله المؤسسات الكهنوتية، وكما يمثله الحق الآلهي في الحكم. وأمة المسلمين ليست دولة مطلقة السيادة على من فيها بالمعنى الذي تطور في الدولة الغربية منذ فلسفة «العقد الاجتماعي» في الفكر الغربي.

٣ ــ وجدت هذه الامة اصلا بوجود انسان جديد، بفهم جديد لنفسه، وبغايات جديدة في نفسه. وكان وجودها من اجل هذا الانسان ومن اجل ما جعل الله فيه من امانة ومن مسؤوليات. غاياتها من غاياته ووظائفها من وظائفه. هذه الامة مكلفة بالجهاد في سبيل الله، وسبيل الله هو هذا الانسان الذي عرّفه الله في كتابه. فاللهه «غني عن العالمين» (آل عمران/٩٧). وهذه الامة تبقى في مواجهة جهادية ودائمة مع نفسها ومع غيرها انتصارا لهذا الانسان. في جهاد مع تاريخها ومع تراثها ومع آثار ذلك كله في هذا الانسان. وفي جهاد مع غيرها من الامم التي لا تعترف بهذا الانسان. والقتال ليس سوى وسيلة واحدة من وسائل كثيرة في هذا الجهاد. والانسان كما رآه القرآن وكما بينته السنة هو المرجع في رؤيتها لنفسها ولما في تراثها، وهو المرجع لعلاقاتها مع غيرها. وتنجح امة المسلمين بقدر ما تنجح في ان يكون الانسان فيها حرا من كل عبودية غير عبودية الله. وقادرا على تحقيق ما جعل الله فيه من طاقات. وتفشل هذه الامة اذا اضطر هذا الانسان فيها الى «التعبد» لغير الله، واذا اضطر الى طلب الخير من غير الله، واذا اضطر الى النفاق والى التزلف. وخاف غير الله. واذا تعطلت فيه ما جعل الله فيه من قدرات وطاقات.

٤ ــ فلا يجوز لهذه الامة ان تغفل عن سبيل الله كما تتجسد هذه السبيل في غايات هذا الانسان، ولا يجوز لها ان توكل مسؤولياتها هذه لغيرها، ان كان ذلك خليفة او سلطانا او ملكا، او كان نظاما سياسيا. فهذه الامة اذا احدثت الانظمة السياسية وغيرها من الانظمة الاجتماعية كضرورة لتحقيق اغراضها، فانها لا يجوز لها ان تنقل سيادتها الى هذه

المؤسسات. وعليها ان تظل دائما وابدا فوق هذه الانظمة وهذه المؤسسات تراقب وترصد، وتحاسب وتعدّل وتبدل حسب ما تقتضيه الغايات التي وجدت من اجلها، وحسب تجاربها في السعي وراء هذه الغايات.

٥ ــ تنازلت امة المسلمين عن سيادتها تدريجيا بعد خروجها من المدينة. لانها صارت ترى الحكم، وترى الحاكم والمحكوم بمنظار حضارات استبدادية عادت بالمسلمين الى «الحاكم الآله» الذي كان يحكم في تلك الحضارات لآلاف السنين، والذي ما زال يحكم امة المسلمين الى هذا اليوم.

لم تنجح امة المسلمين في ايجاد وجود سياسي محسوس لها يمثل سيادتها، ويستوعب ارادتها ويعبر عنها، لانها لم تعرف كيف تبني لنفسها وجودا سياسيا بعد خروجها من المدينة، واغتصبت منها سيادتها تدريجيا بعد المدينة، واستقرت تلك السيادة في من كان على رأس الحكم.

٦ ــ واخيرا، كيف تستعيد امة المسلمين سيادتها على نفسها؟ وما هي الانظمة اللازمة لذلك؟

ثم كيف تصالح بين وجودها كأمة مفتوحة لكل انسان، ووجود شعوب اسلامية مختلفة؟ وكيف تصالح بين غاياتها كأمة للانسان، وغايات هذه الشعوب؟ وكيف يمكن ان تصير غايات هذه الشعوب غايات هذه الامة؟ تتوقف الاجابة على هذه الاسئلة على قناعة هذه الشعوب بان الانسان الذي تريده هو الانسان الذي وجدت من اجله هذه الامة.

الخلافة

١ ــ واول سؤال يجب ان نسأله عن الخلافة هو: «خلافة ماذا؟»، و«من هو الخليفة له؟». فمن هو الخليفة لتحقيق رسالة الاسلام في نظرته الى الانسان؟، وفي نظرته الى العالم؟ وفي نظرته الى التوحيد؟

هل هذا الخليفة هو من يتولى امور امة المسلمين العامة؟

أم انه الامة بأسرها، وكل فرد فيها؟

وهل تعفى امة المسلمين من مسؤولياتها نحو «سبيل الله» بوجود خليفة يتولى امورها العامة؟ وهل تنتهي مسؤولياتها عند اختيار هذا الخليفة؟

٢ ــ الغايات التي حددها القرآن الكريم للناس بصورة عامة، ولامة الملسمين بصورة خاصة ثلاث:

عبادة الله. اي عبادة الله وحده والتحرر من «عبادة» غيره، ان كان بشرا او نظاما او تراثا او غير ذلك. وتتم هذه العبادة بالمعرفة. فما هو النظام التربوي القادر على تربية الانسان كما رآه الاسلام؟ وما هو النظام السياسي الذي يحمي هذا الانسان من اي طغيان بشري وغير بشري؟ ويوفر لهذا الانسان الاشتراك الفعال في تحقيق عبادته لربه (كما رآها الاسلام)؟

استعمار الارض، ويتم بجميع العلوم اللازمة لتسخير كل شيء في العالم من اجل هذه الغاية، ان كانت علوما طبيعية، او علوما تنظيمية وادارية، او علوما اجتماعية.

خلافة الله في الارض، وتتم بمعرفة حكمة الله تعالى في كل شيء وكل امر، وباشتراك الانسان اشتراكا واعيا وفعالا في تحقيق هذه الحكمة.

هذه هي الغايات الاساسية لامة المسلمين. وهي التي تتحقق بها خلافة الامة لرسالة الاسلام.

واما اقامة العدل، وتطبيق الحدود والاحكام الشرعية فهذه شروط ضرورية واساسية لسعي الامة وراء غاياتها، ولكنها ليست غاية في ذاتها، واذا انحصرت وظائف الامة في تطبيق احكام الشريعة، كما تريد بعض الجماعات وبعض الدول الاسلامية، فان امة المسلمين تهمل ما وجدت من اجله، وتعود الى دورة جديدة من العقم الفكري ومن الجمود الحضاري.

٣ ــ امة المسلمين وحدها من بين المؤسسات الاسلامية «لا تجتمع على خطأ»، ولا على «ضلالة».

وهي وحدها التي تقرر ما هو «حسن» وما هو «غير حسن» (ما استحسنته امتي فهو حسن).

فكيف يتم التوصل الى بلورة ارادة الامة؟ وما هي الحقوق وما هي الحريات اللازمة لكل فرد في الامة ليشترك في تكوين هذه الارادة؟ وما هي القنوات والانظمة اللازمة لذلك؟ وما هي الحمايات اللازمة لكل انسان في هذه الامة اذا هو اشترك في تكوين هذه الارادة؟

ثم ما هو الاجتهاد في حياة هذه الامة؟ فهل ينحصر كما انحصر تاريخيا في الفقه؟ وما هو نوع الاجتهاد اللازم لعمارة الارض؟ او لخلافة الله؟ او لاشتراك المسلم في بلورة ارادة الامة؟ هل هذا الاجتهاد من جنس الاجتهاد في الفقه؟ وهل يمكن ان تستغني عنه الامة في بناء الانظمة السياسية والتربوية و... لتحقيق غاياتها؟ ألم يكن حصر الاجتهاد في الفقه مصيبة كبرى على امة المسلمين؟

٤ ــ ثم، من الذي ينشيء الانظمة اللازمة لهذه الامة؟ ومن الذي ينشيء الولايات العامة؟ وكيف تستمر سيادة الامة على هذه الانظمة وعلى هذه الولايات؟ وما هي طبيعة النظام السياسي الذي يجسد هذه السيادة ويضمن سيطرة الامة الفعال على هذه الانظمة وهذه الولايات؟

٥ ــ واخيرا لا تطلب الاجوبة على الاسئلة من تراثنا السياسي. بل تطلب من تجارب البشر في فنون تجسيد فلسفة معينة في الانسان الى واقع سياسي وتربوي واقتصادي وغيره يستوعب فلسفة الاسلام في الانسان ويعكس ما فيها من مبادىء وقيم، ويتحمل تحقيق ما وجدت الامة من اجله من غايات، وهذه المهمة هي اكبر التحديات التي تواجه امة المسلمين اليوم اذا اردنا توظيف الاسلام وتوظيف فلسفته في الانسان في حياة الانسان وفي المجتمعات الاسلامية.

سادسا: الخلاصة

١ ــ الاجتهاد في توظيف الاسلام

حاولنا ان نبين ان توظيف الاسلام الموجود في القرآن وفي السنة يقتضي نوعا اخر من الاجتهاد التقليدي الذي انحصر بفعل صدارة الفقه في حياة المسلمين بالاجتهاد في استنباط الاحكام السلوكية. وان نبين ان هذا النوع الاخر من الاجتهاد هو الاهم في عمليات تجسيد مقاصد الاسلام وغاياته في واقع سياسي وتربوي واقتصادي وغيرها.

وحاولنا ان نبين ان الشروط اللازمة والاساسية لتوظيف الاسلام لا تتم ولا تستكمل الا عند استخراج نظرة القرآن الكريم الى الانسان والى العالم والى الالوهية. ودعونا الى التركيز على استنباط نظرة القرآن الكريم الى الانسان والى العالم بصورة خاصة لتتبلور لنا في النهاية ما تنطوي عليه هذه النظرة من فلسفة في الانسان ومن فلسفة في الكون وفي الطبيعة، لتصير هذه الفلسفة هي المرجع في توليد الفكر الاسلامي الاجتماعي والانساني، وفي بناء وتطوير الانظمة الاجتماعية، السياسية والتربوية وغيرها من الانظمة القادرة على تجسيد مقاصد الاسلام وغاياته في واقع مؤسسي. وانه عندما تتم لنا بلورة هذه الفلسفة تتم لنا الشروط الاساسية للنظر في ما يلائم الاسلام من انظمة اجتماعية.

وقلنا ان البشرية تملك تراثا غنيا وطويلا في فنّ ترجمة نظرة معينة الى الانسان والى الحياة وتجسيدها في واقع اجتماعي، سياسي وتربوي وغيره. وقلنا ان هذه الانظمة تكون اسلامية ما دام بناؤها وتطويرها يعكس نظرة الاسلام الى الانسان ويجسد ما فيها من مبادىء وقيم وغايات.

٢ ــ الاصول الاجتماعية التي يقوم عليها توظيف الاسلام.

وتنفيذا لهذا النوع الجديد من الاجتهاد حاولنا ان نستخلص نظرة القرآن الى الانسان، وان نبين ما تحمله هذه النظرة من غايات ومن مبادىء وقيم ليتم لنا الشرط الاساسي للنظر في تجسيدها الى واقع اجتماعي، سياسي وتربوي وغيرها. فكانت النتائج الاجتماعية الكبرى التي توصلنا اليها هي ما يلي:

الانسان:

ــ ان نظام الحياة، او نظام الدين الكلي،

ليكون هو الاصلح من غيره للانسان، يجب ان يقوم على اساس الاعتراف بالانسان كما هو في حقيقته، وان يكون هذا النظام في نظامه المعرفي وفي نظامه الاجتماعي خير نظام يستجيب لما تقتضيه حاجات الانسان الفطرية من تجسيد ومن نموّ. وان نظام الحياة، او الدين، يحكم له او عليه بقدر قدرته على تلبية هذه الحاجات.

ـــ وان الاعتراف بالانسان هو الاعتراف بما يأتي به من فطرة ومن طاقات عقلية ووجدانية واخلاقية عند لحظة الولادة. وان هذا الاعتراف هو ما يبين هوية الانسان الحقيقة ويؤكد عالمية الانسان. وان خير مصير لهذا الانسان هو في خير مصير لما يأتي به من فطرة ومن طاقات عند لحظة الولادة. وان خير مصير لهذه هو في كشف وفي توظيف الحقيقة كما توجد هذه الحقيقة في حقيقة الانسان وفي حقيقة العالم. وان ما يتوارثه المجتمع من عقائد ومن فكر ومن حضارة ومن انظمة يحكم عليه او له من موقع صلاحيته او عدم صلاحيته لنمو ولتجسيد هذه الفطرة وهذه الطاقات. وان المجتمع الاسلامي، وكما هو في واقعه، يحكم عليه او له كغيره من المجتمعات من هذا الموقع ايضا.

الأمة:

ـــ ان الفروق الاساسية التي تميز امة المسلمين عن غيرها من الامم هي في الاعتراف بهذا الانسان اولا، وفي الحرص على بناء وتطوير واقع اجتماعي يجسد غايات هذا الانسان ويحققها اكثر من اي واقع اخر ثانيا.

هذه هي الاصول الاساسية التي يقوم عليها نظام المجتمع الاجتماعي ليكون هذا المجتمع مجتمعا اسلاميا.

٣ ـــ الامة والانسان

لا توجد امة المسلمين نظريا الا **بعد** وجود المسلمين. فهي لا توجد كما توجد اليهودية او المسيحية بميثاق بين الآله والجماعة كمؤسسة دينية، وانما توجد نتيجة لميثاق بين الله والانسان ونتيجة «للامانة» التي حملها الانسان في فطرية الانسان يسلم ثم يصير من امة المسلمين. وجودها وجود **بعدي**. اي يتم نظريا بعد اسلام المسلمين ومن اجلهم. ويترتب على هذا الفارق بين وجود امة اليهود وامة المسيحيين من جهة، ووجود امة المسلمين من جهة اخرى فوارق كبيرة في سلطان الامة على الانسان، وفي حقوق الانسان وحرياته في الامة.

فليست هذه الامة هي التي تقرر ما يعلمه الانسان فيها وما لا يعلمه. فهذا العلم كان قد تقرر في عمليات اسلام الانسان، اي في علم الحقيقة وفي تجلي صفات الله تعالى وافعاله فيها. وليست هذه الامة هي التي تقرر الحسن وغير الحسن، والمقبول وغير المقبول في سلوك الانسان، فهذه ايضا كانت قد تقررت في ما تنطوي عليه نظرة القرآن الى الانسان من مبادىء وقيم، وفي سنّة رسول الاسلام صلى الله عليه وسلم. وتأكيدا لهذه المبادىء قيّد القرآن الكريم سلطان الرسول (ص) على الانسان في هذه الامة في آيات كثيرة. وليست هذه الامة هي ما يضع الشروط والطقوس لاسلام الانسان. فهذه موضوعة في قول الشهادة. وهي امة مفتوحة لكل انسان يتوصل الى الشهادة.

ولذلك تظل هذه الامة في موقع رصد وحساب من قبل كل من دخل فيها. فهي توجد له ومن اجل غاياته كانسان. وهذا هو الاصل في حقوق كل مسلم في هذه الامة، وفي حرياته. فهذا الانسان هو الذي سيحاسب في النهاية على ما فعله في حياته.

ولكن وجود هذه الامة كأمة منظمة ضروري لتحقيق ما في اسلام الانسان من غايات. ووجودها كأمة منظمة يقوم على اساس هذه الضرورة. فبالاضافة الى انها تقوم كشاهد (البقرة/١٤٣) يجسد خير نظام في الحياة للانسان، فانها تقوم كما ذكرنا من اجل تحقيق: ١ ـــ عبادة الله دون غيره، و٢ ـــ عمارة الارض، و٣ ـــ خلافة الانسان لله في ارضه.

ولذلك كان على الناس في هذه الامة، لأن كل بالغ

عاقل منهم هو المسؤول في النهاية عن تحقيق ما يقتضيه اسلامه من غايات، ان يضمنوا اولا ان لا تخرج هذه الامة عن السلطان الذي قيدها به الاسلام، وان يضمنوا ثانيا ان يكون تنظيم هذه الامة كأمة خير تنظيم يحقق غايات الانسان فيها.

اما القيود على سلطان هذه الامة على الانسان فيها، فتتأكد عمليا بتأكيد حق كل مسلم وحرياته في رصد واقع هذه الامة في كل مجال من مجالات وجودها، وبحمايته من اي طغيان حكومي او فكري يحرمه من هذه الحقوق ويعطلها. واما تنظيم هذه الامة من اجل تحقيق غايات الانسان فيها فيتم عمليا في بناء الانظمة السياسية والتربوية وغيرها من الانظمة التي تستوعب هذه الغايات وتحققها.

والناس في هذه الامة هم المسؤول الاول والاخير في تكوين امة المسلمين. ولذلك كان وجودهم وجودا سياسيا يجسد حقوقهم وحرياتهم، ويجسد ارادتهم كجماعة، ويجسد سيادتهم على كل ما يقيمونه من انظمة اجتماعية هو الاصل وهو الشرط الضروري لحمايتهم كمسلمين من جهة، ولتحقيق اغراضهم التي وجدوا من اجلها من جهة اخرى. وإلا ظلت هذه الامة تحت رحمة من يحكمها وتحت رحمة من يتحكم بفكرها وبواقعها. والناس في ذلك هم المسؤولون.

المضمون الذي تتوجه به هذه الامة هو الاسلام كما جاء في القرآن وفي السنة، وكما حاولنا ان نبين خصائصه في نظرته الى الانسان. واما الشكل الذي يضمن لها حقوق وحريات كل انسان فيها، ويضمن لها وجود الانظمة القادرة على تحقيق ما في نظرة القرآن الى الانسان والى العالم من فلسفة، فهذا الشكل موجود في فنّ تجسيد هذا المضمون الى وجود سياسي وثابت لهذه الامة. والبشرية كما قلنا تملك تراثا طويلا وغنيا في هذا الفن.

واما الظن بان تطبيق الاحكام الشرعية يتم به توظيف الاسلام في حياة المسلمين فيحمل مخاطر استمرارية الاستبداد بأمة المسلمين. لأنه يوهم المسلمين بأن انظمة الحكم الحالية في بلادهم تصير انظمة اسلامية اذا هي التزمت بهذا التطبيق، ويوهم المسلمين ايضا بان الاسلام تتحقق أغراضه في حياة الانسان بهذا التطبيق. لا يختلف احد حول ضرورة وجود احكام مستمدة من الاسلام تحكم سلوك المسلمين في المجتمع وتحكم معاملاتهم ببعضهم البعض وبغيرهم، ولكن ان يتساوى تطبيق هذه الاحكام بتوظيف الاسلام في حياة المسلمين، فهو ما يحمل مخاطر العودة الى الاستبداد بالمسلمين، وهو ما يعطل ما يحمله الاسلام من طاقات في تطوير حياة امة المسلمين.

وقول بعض الدول الاسلامية بان «القرآن هو دستورنا» قول مضلل الغاية منه استمرارية نظام الحكم في تلك الدول. فالقرآن ليس دستورا. ولكنه يحمل الاصول التي ينبغي ان يقوم عليها دستور امة المسلمين، وكما توجد تلك الاصول في نظرة القرآن الى الانسان والى العالم.

وكذلك سيادة الفقهاء في بعض دول المسلمين اغتصاب لسيادة الامة في تلك الدول. فالفقيه رجل متخصص في الاحكام التي تضبط السلوك وفي القضاء بين الناس، ولكن ان يظل هو المسؤول عن كل مجال من مجالات حياة الامة فمعناه حرمان هذه الامة من مسؤولياتها في بناء الانظمة اللازمة لاستيعاب جميع غايات الاسلام، ومناهجه في فهم الاسلام والاجتهاد الذي يقوم عليها لا تصلح لبناء الانظمة السياسية والتربوية والاقتصادية وغيرها القادرة على استيعاب هذه الغايات وعلى تحقيقها.